قصص : فــؤاد حــدّاد

رسـوم : محيي الدين اللبّاد



مِنَ الْقَلْبِ لِلْقَلْبِ

دار الفتى العربي



كِتابٌ خاص

يَصْدُر تَكرِيماً لِلشّاعِر

فُؤاد حَدّاد

في ذِكرَى وَفاتِهِ الرّابعَة

من القلب للقلب

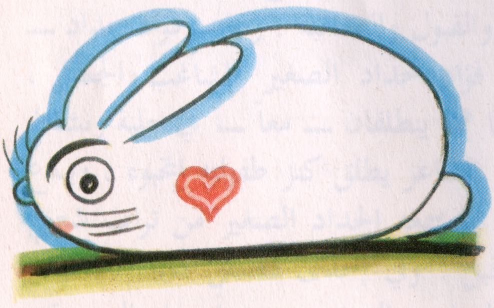
الطبعة الأولى : ١٩٩٠

القاهرة : ٩ شارع مديرية التحرير ، جاردن سيتي
هاتف : ٣٥٥٠٥٦٤ ، تلكس : 93064 TEAM—UN
بيروت : ص . ب ٥٢٣٦ / ١٤ ، برقيا ، دفتنشر
هاتف : ٣١٢٤٢٠ ، تلكس : 230220 ARABI—LE

سلسلة **الأفق الجديد**

قصص : فؤاد حدّاد

رسوم : محيي الدين اللبّاد



مِنَ القَلْبِ لِلقَلْبِ

دار الفتى العربي

كلمة من الرسام

بدءاً من عام ١٩٦٨ ؛ قرأت قصص فؤاد حداد (١٩٢٧ ــ ١٩٨٥) التي نشرها للأطفال في مجلاتهم المصرية . وكان أغلب هذه القصص مُعَرَّباً عن اللغة الفرنسية التي أجادها الشاعر ، كما كان منها الكثير من القصص الشعبي الإفريقي . وقبلها ؛ وفي عام ١٩٦٤ ؛ كنا قد تعرفنا ــ من جديد ــ على أشعار فؤاد حداد بعد أن حُجبت عنا ــ قسراً ــ عدة سنوات . وكان بعضها في شكل أغاني الأطفال الشعبية المتداولة مثل : « طلعت أدِبّ / نزلت أدب / لقيت الدبّ / يقزقز لبّ » ، و« حكاية الشاطر حسن » . ومن خلال هذه الأشكال الجميلة ؛ كان الشاعر يحدِّثنا في الوطنية ، والسياسة ، وأمور المجتمع .

كان فؤاد حداد ــ وقتها ــ لايزال مشغولاً بالطفل القابع داخله ، يلاعب كل منهما الآخر ويحاوره ، وينتظر منه الاعتراف والقبول والصحبة . وهاهو فؤاد حداد ــ في السنوات الأخيرة من حياته ــ يقابل فؤاد حداد الصغير المشاغب الجميل ، ويتعرَّفه ، ويصالحه ، ويَقْبَله ، ويُقَبِّله . ثم ها هما ينطلقان ــ معاً ــ في جلبة ونشاط واحتفال في غاية الظَّرْف والحلاوة . وها هو الشاعر يطلق كنز طفولته المخبوء ، ويبدع ملاحم شعرية وقصصاً للأطفال ؛ مستوحاة مما سمعه الحداد الصغير من تراث شعبي متنوع ، وهي تختلف عما عرفناه له من قبل . وفي إحدى قصص هذا الكتاب ؛ يسجل فؤاد حداد ــ مبتهجاً ــ اكتشافه لصاحبه الصغير ؛ متمنياً دوام الصحبة : « تسمح لي ــ إذن ــ أن أقول لك : إن فؤاد الحداد طفل الفؤاد ، شاب الفؤاد ، إلى الأبد ! » .

ويضم هذا الكتاب أربع قصص جميلة لم يسبق نشرها . لانعرف مصدرها كلها ؛ هل ألفها الحداد ، أم أنه استوحى أفكارها من مصادر أخرى ؛ مثل قصة « الصياد العجوز » المستوحاة من تراث الحكايات الشعبية العربية . لكن ليس هذا هو المهم ــ المهم هو أن الشاعر حكى قصصه باليسر الذي تكلم به في حياته اليومية ، وبخيال عامي غني خصيب ، وفي نفس الوقت بلغة فصيحة فاخرة . وقد حفز هذا

الخيال الخاص التداعي التلقائي لأن ينمو متفرعاً غصناً عن غصن ، كما حفز السجع غير المصنوع لأن يلعب في النص لعبة « نطَّة الإنجليز » مثيراً المرح كلما حضر . كل هذا بالإضافة إلى الصور والمواقف والأحداث ، وحتى أسماء الأشخاص والأماكن التي لم يستعملها أحد من قبله ؛ لأنها جميعًا كانت مخبوءة مصرورة في عُبّ جلباب فؤاد حداد الصغير الذي كان يضمها — في حرص — منتظراً يوم اللقاء .

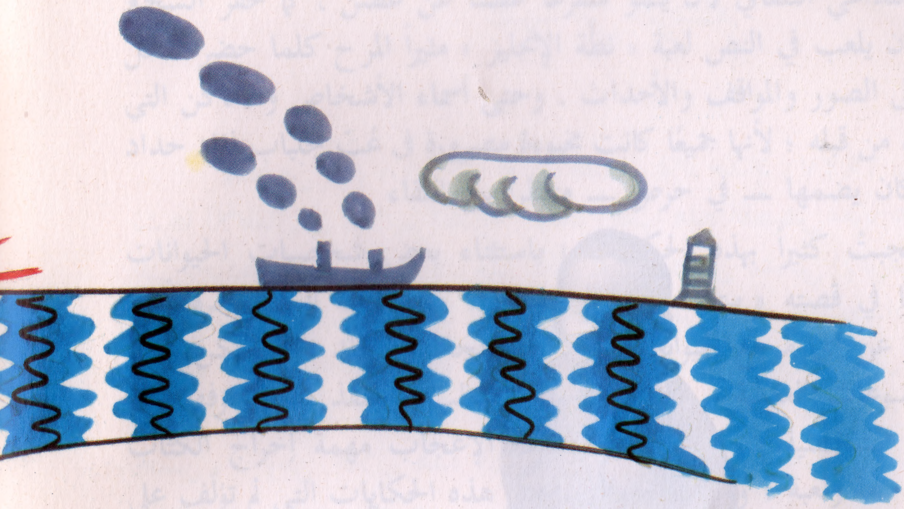
وقد أُعجبتُ كثيراً بهذه الحكايات [باستثناء بعض شخصيات الحيوانات الغريبة عن بيئتنا في قصته « بيتك بيتك يا أرنب » . ولقد كان البحث مرهقاً — وبلا جدوى — عن أي مرجع لحيوانات الغرير والسنجاب والخلد ؛ فلم يكن هناك سوى صور الموسوعات العلمية ؛ بخلاف الأرنب والثعلب والقنفذ التي أعرفها على مستوى التجربة الشخصية] ، وقد يسَّر لي هذا الإعجاب مهمة إخراج الكتاب ورسمه ، وجعلها متعة ولعبة ، وليست مهمة . فمثل هذه الحكايات التي لم تؤلَّف على النمط الجاهز المعروف ؛ تُفجِّر لدى الرسام قدراته — على اللعب و« الهَجْص » — قبل مهاراته . ومن هنا ؛ قد نقول إن تقدم رسوم كتب الأطفال العربية وتجاوزها للراهن مشروط بتقدم النصوص وانفلاتها من سجن التكرار ، والتقليد ، والنمطية ، والوعظ .

في ذكراه الرابعة ؛ تحية للمعلم فؤاد حداد ، وشكراً خاصًّا له على القصص الأربع الجميلة التي سنقرأها على الصفحات التالية .

محيي الدين اللباد
١٩٩٠



فؤاد حداد في السنة الأولى من عمره (١٩٢٨)






من القلب للقلب

من القلب للقلب

نحن أهل بلدةٍ صغيرةٍ على السَّاحل ؛ تسكنها أربع أو خمس عائلاتٍ متحابَّةٍ متعاونةٍ في السَّرَّاء والضَّرَّاء ؛ جُلّ أبنائها ــ إن لم يكن كلُّهم ــ من الصَّيَّادين والسَّمَّاكين وممَّن يُصلحون السُّفن ، أو يغزلون الشِّباك ويفتلون الحبال ، أو يصنعون عقودًا من خرزٍ بديعٍ ولآلِئَ شتَّى ؛ منها الرَّخيص ومنها الثَّمين .

وكان في بلدتنا رجلٌ وزوجته يعيشان في سعدٍ وهناءٍ ؛ يتَّفقان في المروءة والبساطة والصِّدق والودِّ . فإذا اجتمعتْ هذه الخِصال ؛ كان أجمل تعبيرٍ عنها بسمةً تعلو الشِّفاه عند لقاء الأحبَّة ، وبسمةً أخرَى عند لقاء المخاطر والمشقَّات .

وكانا مثال التَّآلف والمزاج المعتدل الطَّيِّب الأنيس . يختلف الصِّغار والكبار ؛ هل هما أميل إلى الوقار أم إلى المرح . متشابهان في كثيرٍ من شؤون الحياة وفي الطِّباع والخُلق وأشياءَ أخرَى مثل الكلمات . يقول الرَّاوي : « كانت هي من عائلة المرجاوي ، وهو من عائلة البرجاوي ، ويُنادَى ويُدعَى باسم أبي حمادة فهي بالطَّبع كذلك أمُّ حمادة » .

وكان يعمل حارس فنارٍ في البحر ؛ يغيب عن منزله فتراتٍ تمتدُّ إلى شهورٍ ، ولكنَّ صورة الزَّوجةِ الوفيَّة ، وابنهما الوحيد حمادة الذي يدرج نحو الخامسة ؛ لا تبرح مُخيِّلته أبدًا . وكان عليه أن يواصل السَّهر باليقظة في الفنار ــ ليلَ نهارَ ــ حتى لا تنطفئ شعلته أبدًا ، وتظلَّ تضيء للمراكب ؛ فتسلك طريقاً آمنًا ؛ تتجنَّب الصُّخور إلى أن تدركَ البرَّ سليمةً بإذن الله .

وكانت هي تبعث إليه ــ كلَّ يوم أربعاء ــ بزاده وزُوَّاده من الطَّعام ، والسُّكَّر ، وحاجاتٍ قليلةٍ ، ونبْتِ الزَّنجبيلِ مشروبه الأثير ؛ ليدفأ في الشِّتاء القارس ، ولتصفو حنجرته متى أراد الغناء ؛ فقال :

هذا نور الفنار



وردٌ بردٌ ونـار
في لون الجُلَّنار[١]
يشدو مثل الكنار
في اللَّيل والنَّهار
والشَّمس والقمر
يا عرفانَ الجميـل
هذا نبتٌ نبيل
من طهر الزَّنجبيل
يسقي من سلسبيل
يهدي إلى السَّبيل
يُؤتي خيرَ الثَّمر
هل يشكر البنون
هذا القلب الحنون
يراه العاملـــون
في البحر لا يَتُون[٢]
سفراً على سَفَرْ
هذا شوقٌ صبَر
وحنينٌ قد غمر
الشَّمس والقمـر
واللَّيـل والنَّهـار
يشدو مثل الكنار
في لون الجُلَّنار

(١) الجُلَّنار : زهرة الرُّمَّان (٢) يتون : يخادع

وردٌ   بردٌ   ونـار
هذا   نور   الفنار



وكنّا نرى أبا حمادة في بلدتنا بين الحين والحين ؛ بل كنّا نراه إذا أردنا الدِّقَّة كلّ ثلاثة أشهر ؛ فنستبشر عندما يطالعنا وجهه البشوش ، ونحيِّيه مشتاقين ، ونتمسَّك بدعوته إلى احتساء كوبٍ من الشّاي أو فنجانٍ من القهوة أو الزَّنجبيل إذا أحبَّ أن يستزيد منه ، فيقبل دعوتنا مشكوراً ، وتغمرنا الفرحة جميعاً ، ونظلُّ نقول :

« مرحبًا ــ مرحباً ــ أهلًا وسهلًا ــ كيف الحال ؟ ».

وقديمًا قالوا في الأمثال : « يُعرَف الصَّاحب من صدق المراحب » .

وذات مرَّةٍ ؛ ارتفعت أمواج البحر عاليةً ، وهبَّت العاصفة ، ومرَّ يوم الأربعاء ، ولم يصِلْ إلى أبي حمادة شيء ممَّا تعوَّده في مثل هذا الموعد من كلِّ أسبوعٍ . وظلَّت الأمواج تلطم الفنار ، وتلطم الشَّاطئ الذي يبعد عنه ميلاً ؛ والذي تقع عنده بلدتنا ؛ تنظر إلى البحر وتأمل عودة الغائبين .

وراح يقول في مثل المناجاة : « كم أوحشَتْني أمُّ حمادة ، وأوحشني حمادة ، وأوحشتني الحلاوة الطَّحينيَّة . لقد فرغ المخزون منها عندي ؛ وأنا لا أستطيب الحياة بدونها ؛ بل أنا لا أستطيع الحياة بدونها ! ».

وضحك أبو حمادة لهذه المبالغة في القول والادِّعاء ، وردَّدت جدران الفنار

ضحكته بصوتٍ غريبٍ ؛ كأنّها تريد أن تذكّره بعزلته ، فعاد وقطّب بين حاجبَيْه . ونظر فجأةً فرأى في البحر من قِبَل البلدة مركبًا يصارع الأمواج ؛ قويًّا تحكمه يدٌ مدرَّبةٌ . وأمعن النَّظر ؛ فدقَّ قلبه في صدره بهجةً وسرورًا ، ودقَّ إشفاقًا وخوفًا ! .. إن الطَّيف المقبل نحوه فوق المركب هو طيف أمِّ حمادة . هي أمُّ حمادة نور العين ؛ جاءت بزاده وزُوَّاده من الطَّعام ، ومن ثياب الصُّوف ...

.. واقتربت وتبادلا السَّلام . وخرج إلى شرفة الفنار ؛ وهو يدعو لها متمتِمًا : « أبقاكِ الله لابنك وزوجك ياروح الحياة » .

بادرته قائلة : « لا أستطيع أن أرسو في هذا الجوِّ ! » ..

قال : « تسألين عن الجوِّ ؟! إنه باردٌ بعض الشَّيء ، وعاصفٌ بعض الشَّيء ، ومحتمَلٌ بعض الشَّيء ! » .

قالت : « لا أستطيع أن أسمعك » .

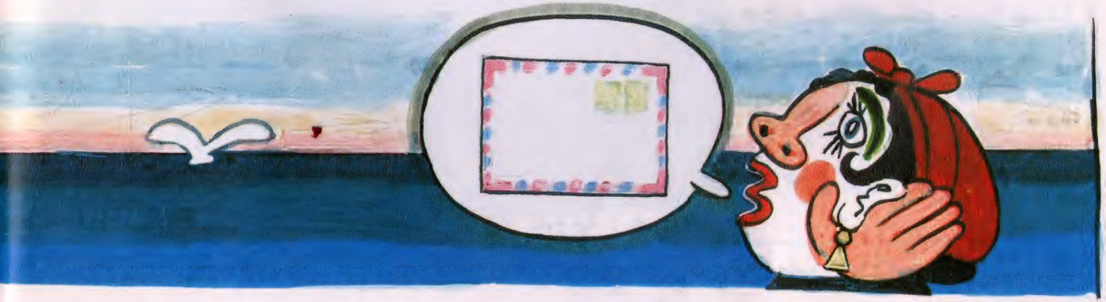
قال : « تسألين مَنْ معك ؟ لا يوجد معي أحدٌ للأسف ؛ فإن الفأر الذي كان يؤنسني ، ويقرض في قرص الجبن وحبَّات الزَّيتون قد غرق أمس » .

قالت : « المهمُّ يا أبا حمادة أن تلقي الحبل » .

قال : « الطَّبل ! فهمت ! تقولين إن الأمواج تدوِّي وتدقُّ وترغي وتزبد مثل الطَّبل . هذا صحيحٌ ، وأنا الآن لا أكاد أسمعك ! » .

قالت : « أنزِل السَّلَّة بالحبل لكي أضع الزَّاد فيها » .

وأدرك ما قالت بأذنه ، أو فهم إشارتها بعينه ؛ فدلَّى الحبل بالسَّلَّة ؛ وهو يقول









لها : « لا تنسَي أن تضعي الحلاوة » .

قالت : « حمادة ؟ أنت تسأل عن حمادة يا أبا حمادة ؟! إن حمادة بخير ؛ وهو يسلِّم عليك ويقبِّل يديك ، وكان يريد أن يأتي معي ، ولكنَّني زجرتُه وأبقيتُه في المنزل ؛ بل أخذتُه إلى أمِّ سعدون ليلعب مع أطفالها في انتظار رجوعي » .

وكانت توالي حديثها الذي لا يُسمَع منه إلا أقلّ القليل ، وتوالي وضع الأطعمة في السَّلَّة .

واعترف فيما بينه وبين نفسه بخطئه قبل خطئها . إن أوَّل سؤالٍ يلقيه عليها ؛ كان يجب أن يكون عن حمادة لا عن الحلاوة . أي نعم عن حمادة لا عن الحلاوة . ومع ذلك ؛ فقد فتَّش عن السَّلَّة بعد أن رفعها ؛ فلم يجد فيها ما كان يتلهَّف عليه .. لم يجد الحلاوة . وكأنَّه ابتسم ، وكأنَّه عاد إلى الجدِّ ؛ عندما تذكَّر زوجته المسكينة الجالسة في المركب أسفل الفنار في الزَّمهرير والعاصفة (ما أوفاها وأطيبها !) .

قال وهو يُنزل السَّلَّة مرَّةً أخرَى : « أريد حلاوةً طحينيَّةً ، هل أتيتِ بالحلاوةِ الطَّحينيَّة ؟ » .

قالت : « لحمٌ في الصِّينيَّة ! لحمٌ في الصِّينيَّة ! لقد أتيتُ لك بصينيَّةٍ على قدر حالنا ؛ صينيَّةٌ صغيرةٌ صنعتُها بيدي كما تحبُّ بالبصل والفلفل والخلِّ والغار والكمُّون ، ولففتُها في ورقةٍ لتحفظ حرارتها وطعمها . ستأكل بعدها أصابعك » .

ورفع حارس الفنار السَّلَّة ؛ وهو راضٍ بالطَّبع عن هذه التُّحفة البهيَّة من المأكولات الشَّهيَّة ، ولكنَّه مازال متمسِّكًا بالحلاوة التي ظلَّ يحلم بها ليلتَيْن ويتخيَّلها ثلاثة أيَّامٍ ، قال : « يا أمَّ حمادة اسمعي وعي ، اجعلي كلامي يدخل أذنيك صحيحًا كما هو ؛ فلا يتبدَّل عندما يصل إليهما ! إنني أريد حلاوةً طحينيَّةً . إن الحلاوة الطَّحينيَّة هي كلُّ ما أريد ! » .

قالت : « بريد ؟ أي نعم البريد ! لقد جاءت رسالاتٌ قليلةٌ إلينا بالبريد ، وقد حفظتها لك عندنا ، ثم قلت اليوم عندما أزمعت المجيء إليك : خذي معك الرَّسائل إلى أبي حمادة ليتسلَّى بقراءتها » .

ورفع أبو حمادة السَّلَّة واستلم خطاباته . ويئس من أن تفهم أمُّ حمادة بغيته

فسكت .. وسمعها تنادي وتقول : « أنزِلِ السَّلَّة إن عندي مفاجأةً ستسرُّك جدًّا جدًّا » .

وأنزل السَّلَّة بالحبل ، ورآها وهي تضع فيها شيئًا يشبه الصُّندوق الأسطوانيَّ . أيكون هذا هوما طلبه ؟! .. لا تتسرَّع ياأبا حمادة حتى لا تُفجَع في أمنياتك وآمالك .

ورفع السَّلَّة ، وكانت هي ــ بالفعل ــ علبة الحلاوة الطَّحينيَّة ؛ فكاد يقبِّلها . وصاح من فوق الأمواج ؛ مخاطبًا زوجته العزيزة :

« شكرًا ياأمَّ حمادة ! ألف شكرٍ وزيادة ! لا أبطل الله لأهل الخير عادةً ! » .





بيك بيك يا أرنب

